

أبلغهم إياه كقوله تعالى ( ذلك تلاوه عليك من الآيات والله أكرم الحكيم ) وكقوله تعالى ( تتلو عليك من نبي موسى وفرعون بالحق ) الآية أي أنا مبلغ ومنذر ( فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين ) أي لى أسوة بالرسول الذين أنذروا قومهم وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم وخلصوا من عهدتهم وحساب أهمهم على الله تعالى كقوله تعالى ( فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ) وقال ( إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل ) ( وقال الحمد لله سيريك آياته فتعرفونها ) أي لله الحمد الذي لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، والانتذار إليه ، ولهذا قال تعالى ( سيريك آياته فتعرفونها ) كما قال تعالى ( سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ) وقوله تعالى ( وما ربك بغافل عما تعملون ) أي بل هو شهيد على كل شيء . قال ابن أبي حاتم ذكر عن أبي عمر الحوضي حفص بن عمر حدثنا أبو أمية بن يعلى التقي حدثنا سعيد بن أبي سعيد سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ « يا أيها الناس لا يفتن أحدكم بالله فإن الله لو كان غافلاً شيئاً لأغفل البعوضة والجرذلة والذرة » وقال أيضاً حدثنا محمد بن يحيى حدثنا نصر ابن علي قال أبي أخبرني عن خالد بن قيس عن مطر عن عمر بن عبد العزيز قال : فلو كان الله مغفلاً شيئاً لأغفل ما تعفى الرياح من أثر قدمي ابن آدم ، وقد ذكر عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى أنه كان ينشد هذين البيتين إيمانه وإيمانه لغيره

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل \* خلوت ولكل قل على رقيب  
ولا تحسبن الله يغفل ساعة \* ولا أن ما يخفى عليه يغيب

آخر تفسير سورة النمل وقه الحمد والمنة

### ( تفسير سورة القصص وهي مكية )

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله حدثنا يحيى بن آدم حدثنا وكيع عن أبيه عن أبي إسحق عن معديكرب قال أتينا عبد الله فسألناه أن يقرأ علينا طسم المائتين فقال ما هي معي ولكن عليكم بمن أخذها من رسول الله ﷺ خباب بن الأرت قال : فأتينا خباب بن الأرت فقرأها علينا رضي الله عنه .

( بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ )

( طسم \* تلك آيات الكتاب المبين \* نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون \* إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين \* ونريد أن نمنن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين \* ونسكن لهم في الأرض ونري فرعون ونرى فرعون وهن وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون )

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة ، وقوله ( تلك ) أي هذه ( آيات الكتاب المبين ) أي الواضح الجلي الكاشف عن حقائق الأمور وعلم ما قد كان وما هو كائن . وقوله ( نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق ) الآية كما قال تعالى ( نحن نقص عليك أحسن القصص ) أي نذكر لك الأمر على ما كان عليه كأنك تشاهد وكأنك حاضر ثم قال تعالى ( إن فرعون علا في الأرض ) أي تكبر ونجبر وطني ( وجعل أهلها شيعاً ) أي أصنافاً قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته وقوله تعالى ( يستضعف طائفة منهم ) يعني بني إسرائيل وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم ، هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم في أحسن الأعمال ، ويكدم ليلاً ونهاراً في أشغاله وأشغال رعيته ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحي نساءهم وإهانة لهم واحتقاراً وخوفاً من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه . وكانت القبط قد تلقوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسون من قول إبراهيم الخليل عليه السلام حين ورد الديار المصرية وجرى له مع جبارها

ما جرى حين أخذ سارة ليتخذها جارية فصانها الله منه ومنعه منها بقدرته وسلطانه فيبشر إبراهيم عليه السلام ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك ملك مصر على يديه فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون فاحترز فرعون من ذلك وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل ولن ينفع حذر من قدر لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ولكل أجل كتاب ولهذا قال تعالى ( ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض - إلى قوله - يحذرون ) وقد فعل تعالى ذلك بهم كما قال تعالى ( وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون - إلى قوله - يعرشون ) وقال تعالى ( كذلك وأورثناها بني إسرائيل ) أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى فما نفعه ذلك مع قدرة الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القدرى ولا يئلب بل نفذ حكمه وجرى قلبه في القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده وقتلت بسببه ألوفا من الولدان إمامنشؤه ومرباه على فراشك وفي دارك وغذاؤه من طعامك وأنت تربيته وتدله وتتفاده وحنتك وهلاكك وهلاك جنودك على يديه لتعلم أن رب السموات العلاء هو القاهر الغالب العظيم القوى العزيز الشديد المحال الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَأَوْنَاهُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَاهُ مِنَّا مِّنَ الْمُرْسَلِينَ ۖ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۖ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِبِينَ ۖ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنِي لِئَلَّا تُقْتَلُوا عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَّا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۖ ﴾

ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بني إسرائيل خافت القبط أن يفنى بني إسرائيل فيلون هم ما كانوا يولونه من الأعمال الشاقة فقالوا لفرعون إنه يوشك إن استمر هذا الحال أن يموت شيوخهم وغلمانهم يقتلون ، ولساؤهم لا يمكن أن تقمن بما تقوم به رجالهم من الأعمال فيخلص إلينا ذلك فأمر بقتل الولدان عاما وتركهم عاما ، فولد هرون عليه السلام في السنة التي يتركون فيها الولدان ، وولد موسى في السنة التي يقتلون فيها الولدان ، وكان لفرعون ناس موكلون بذلك وقوابل يدرن على النساء فمن رأيتها قد حملت أحصوا اسمها ، فإذا كان وقت ولادتها لا يقبلها إلا نساء القبط فان ولدت المرأة جارية تركنها وذهبن ، وإن ولدت غلاماً دخل أولئك الدبايحون بأيديهم الشفار المرهفة قتلوه ومضوا قبجهم الله تعالى . فلما حملت أم موسى به عليه السلام لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها ولم تظن لها الدايات ، ولكن لما وضعت ذكراً ضاقت به ذرعاً وخافت عليه خوفاً شديداً وأحبته حباً زائداً وكان موسى عليه السلام لا يراه أحد إلا أحبه فالسعيد من أحبه طبعاً وشرعاً ، قال الله تعالى ( وألقيت عليك محبة مني ) فلما ضاقت به ذرعاً ألهمت في سرها وألقت في خلدتها ونثت في روعها كما قال تعالى ( وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا ردهه إليك وجعلناه من المرسلين ) وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل فاتخذت تابوتاً ومهدت فيه مهداً وجعلت ترضع ولدها فإذا دخل عليها أحد يمن تخافه فذهبت فوضعت في ذلك التابوت وسيرته في البحر وربطته بحبل عندها فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه فذهبت فوضعت في ذلك التابوت وأرسلته في البحر وذهلت أن تربطه فذهب مع الماء واحتمله حتى مر به على دار فرعون فالتقطه الجوارى فاحتملته فذهبن به إلى امرأة فرعون ولا يدرين ما فيه وخشين أن يقتن عليها في فتحه دونها ، فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلمها ولهذا قال ( فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ) الآية قال محمد بن إسحق وغيره اللام هنا لام العاقبة لالام التعليل لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضى

ما قالوه ولكن إذا نظر إلى معنى السياق فانه تبقى اللام للتعليل لأن معناه أن الله تعالى قيضهم لالتقاطه ليجعله عدوا لهم وحرنا فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه ولهذا قال تعالى (إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) وقد روى عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه كتب كتابا إلى قوم من القدرية في تكذيبهم بكتاب الله وبأقداره النافذة في علمه السابق وموسى في علم الله السابق لفرعون عدو وحرنا قال الله تعالى (ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) وقتلتم أتم لو شاء فرعون أن يكون لموسى وليا وناصرآ والله تعالى يقول (ليكون لهم عدوا وحرنا) وقوله تعالى (وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك) الآية يعني أن فرعون لما رآه هم بقتله خوفا من أن يكون من بني إسرائيل فشرعت امرأته آسية بنت مزاحم تخاصم عنه وتذبذبه وتحييه إلى فرعون فقالت (قرة عين لي ولك) فقال فرعون أملك فنعم وأمالى فلا ، فكان كذلك وهداها الله بسببه وأهلكه الله على يديه وقد تقدم في حديث الفتون في سورة طه هذه القصة بطولها من رواية ابن عباس مرفوعا عند النسائي وغيره . وقوله (عسى أن ينفعنا) وقد حصل لها ذلك وهداها الله به وأسكنها الجنة بسببه . وقوله (أو تتخذن ولدا) أى أرادت أن تتخذن ولدا وتتبنينه وذلك أنه لم يكن لها ولد منه وقوله تعالى (وهم لا يشعرون) أى لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة والحجة القاطعة

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِيًّا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ \* وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ \* وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ \* فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَمَا تَجَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنُ وَلَنَعْلَمَنَّ أَن وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن فؤاد أم موسى حين ذهب ولدها في البحر أنه أصبح فارغا أى من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو عبيدة والضحاك والحسن البصرى وقناة وغيرهم (إن كادت لتبدي به) أى إن كادت من شدة وجددها وحرمتها وأسفها لتظهر أنه ذهب لها ولد وتخبر بها لولا أن الله ثبتها وصبرها قال الله تعالى (لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين) وقالت لأختها قصيه (أى أمرت ابنتها وكانت كبيرة تعنى ما يقال لها فقالت لها (قصيه) أى اتبعى أثره وخذى خبره وتطلبي شأنه من نواحي البلد فخرجت لذلك (فبصرت به عن جنب) . قال ابن عباس عن جانب ، وقال مجاهد بصرت به عن جنب عن بعيد

وقال قناة جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده وذلك أنه لما استقر موسى عليه السلام بدار فرعون وأحبته امرأة الملك واستطلقت منه عرضوا عليه المراضع التى فى دارهم فلم يقبل منها ثديا وأبى أن يقبل شيئا من ذلك فخرجوا به إلى السوق لعلمهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته فلما رأته بأيديهم عرفته ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها . قال الله تعالى (وحرمتنا عليه المراضع من قبل) أى تحريما قدريا وذلك لكرامته عند الله وصيائه له أن يرتضع غير ثدى أمه ولأن الله سبحانه وتعالى جعل ذلك سببا إلى رجوعه إلى أمه لترضعه وهى آمنة بعد ما كانت خائفة فلما رأتهم حائرين فيمن يرضعه (قالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون) قال ابن عباس فلما قالت ذلك أخذوها وشكوا فى أمرها وقالوا لها وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت لهم نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم فى سرور الملك ورجاء منفعتهم فأرسلوها فلما قالت لهم ذلك وخلصت من أذاهم ذهبوا معها إلى منزلهم فدخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه ففرحوا بذلك فرحا شديدا وذهب البشير إلى امرأة الملك فاستدعت أم موسى وأحسنت إليها وأعطتها عطاء

جزيلاً وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة ولكن لكونه وافق ثديها ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضه فأبت عليها وقالت ؛ إن لي بعلا وأولاداً ولا أقدر على القيام عندك ، ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلت فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك وأجرت عليها النفقة والصلاة والكساوى والإحسان الجزيل فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمناً في عز وجاه ورزق دار . ولهذا جاء في الحديث « مثل الذى يعمل ويحتسب فى صنعته الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها » ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل يوم وليلة أو نحوه والله أعلم فسبحان من بيده الأمر ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن الذى يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجاً وبعد كل ضيق مخرجاً ، ولهذا قال تعالى ( فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ) أى به ( ولا تحزن ) أى عليه ( ولتعلم أن وعد الله حق ) أى فيما وعدها من رده إليها وجعله من الرسلين فيحينئذ تحققت برده إليها أنه كائن منه رسول من الرسلين فعاملته فى تربيتها ما ينبغي له طبعاً وشرطاً . وقوله تعالى ( ولكن أكثرهم لا يعلمون ) أى حكم الله فى أفعاله وعواقبها المحموده التى هو المحمود عليها فى الدنيا والآخرة فربما يقع الأمر كرهياً إلى النفوس وعاقبته محموده فى نفس الأمر كما قال تعالى ( وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ) وقال تعالى ( فعى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً )

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ \* وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَنصَفَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَىٰ الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ \* قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ \* قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴾

لما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى عليه السلام ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى آناه الله حكماً وعلماً قال مجاهد يعنى النبوة ( وكذلك نجزي المحسنين ) ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ما كان تعالى قدره له من النبوة والتكليم فى قضية قتله ذلك القبطى الذى كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين فقال تعالى ( ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ) قال ابن جريج عن عطاء الخراسانى عن ابن عباس وذلك بين المغرب والعشاء . وقال ابن المنكدر عن عطاء بن يسار عن ابن عباس كان ذلك نصف النهار وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة والسدى وقاتدة ( فوجد فيها رجلين يقتتلان ) أى يتضاربان ويتنازعان ( هذا من شيعته ) أى إسرائيلى ( وهذا من عدوه ) أى قبطى ، قاله ابن عباس وقاتدة والسدى ومحمد بن إسحق ، فاستغاث الإسرائيلى بموسى عليه السلام فوجد موسى فرصة وهى غفلة الناس فعمد إلى القبطى ( فوكره موسى فقضى عليه ) قال مجاهد فوكره أى طعنه بجمع كفه وقال قاتدة وكره بعصا كانت معه فقضى عليه أى كان فيها حنفة فمات ( قال ) موسى ( هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين \* قال رب إني ظلمت نفسى فاعفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم \* قال رب بما أنعمت لى من الجاه والعز والنعمة ( فلن أكون ظهيراً ) أى معيناً ( للمجرمين ) أى الكافرين بك . المخالفين لأمرك

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اُسْتَنْصَرُهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ \* فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن موسى عليه السلام لما قتل ذلك القبطي أنه أصبح ( في المدينة خائفا ) أي من معرفة ما فعل ( يتربص ) أي يتلفت ويتوقع ما يكون من هذا الأمر فمر في بعض الطرق فاذا ذلك الذي استنصره بالأمس طى ذلك القبطي يقاتل آخر فلما مر عليه موسى استصرخه على الآخر فقال له موسى ( إنك لغوى مبین ) أي ظاهر الغواية كثير الشر ثم عزم موسى على البطش بذلك القبطي فاعتقد الاسرائيلي لحوره وضعفه وذلكه أن موسى إنما يريد قصد ما سمعه يقول ذلك فقال يدفع عن نفسه ( يا موسى ) أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس ؟ وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى عليه السلام فلما سمعها ذلك القبطي لقفها من فمه ثم ذهب بها إلى باب فرعون وألقاها عنده فعمل فرعون بذلك فاشتد حنقه وعزم على قتل موسى فطلبوه فبعثوا وراءه ليحضروه لذلك

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾

قال تعالى ( وجاء رجل ) وصفه بالرجولية لأنه خالف الطريق فسلك طريقا أقرب من طريق الدين بعثوا وراءه فسبق إلى موسى فقال له يا موسى ( إن الملأ يأترون بك ) أي يتشاورون فيك ( ليقتلوك فاخرج ) أي من البلد ( إنى لك من الناصحين )

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ \* وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ \* وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدِّرَ الرَّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ \* فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾

لما أخبره ذلك الرجل بما تمألا عليه فرعون ودولته في أمره خرج من مصر وحده ولم يأنف ذلك قبله بل كان في رفاهة ونعمة ورياسة ( فخرج منها خائفا يتربص ) أي يتلفت ( قال رب نجني من القوم الظالمين ) أي من فرعون وملكه فدكروا أن الله سبحانه وتعالى بعث إليه ملكا على فرس فأرشده إلى الطريق فأنه أعلم ( ولما توجه تلقاء مدين ) أي أخذ طريقا سالكا مهبطا فرح بذلك ( قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ) أي الطريق الأقوم ففعل الله به ذلك وهدها إلى الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة فجعله هاديا مهديا ( ولما ورد ماء مدين ) أي لما وصل إلى مدين وورد ماءها وكان لها بئر يردده رعاء الشاء ( وجد عليه أمة من الناس يسقون ) أي جماعة يسقون ( ووجد من دونهم امرأتين تذودان ) أي تكفكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لثلا يؤذيا فلما رأهما موسى عليه السلام رق لهما ورحمهما ( قال ما خطبكما ؟ ) أي ما خبركما لا تردان مع هؤلاء ؟ ( قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء ) أي لا يحصل لنا سقى إلا بعد فراغ هؤلاء ( وأبونا شيخ كبير ) أي فهذا الحال الملجء لنا إلى ما ترى قال الله تعالى ( فسقى لهما ) قال أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عبيد الله أنبأنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون الأودى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون قال فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ولا يطبق رفعها إلا عشرة رجال فاذا هو بامرأتين تذودان قال ما خطبكما ؟ فحدثناه فأتى الحجر فرفعه ثم لم يستق إلا ذنوبا واحدا حتى رويت الغنم ، إسناده صحيح . وقوله تعالى ( ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير ) قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام . إلا البقل وورق الشجر وكان حافيا

فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه وإنه محتاج إلى شق تمرة . وقوله ( إلى الظل ) قال ابن عباس وابن مسعود والسدي جلس تحت شجرة ، وقال ابن جرير : حدثني الحسين بن عمرو العنقزي حدثنا أبي حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : حثت على جبل ليلتين حتى صبحت مدين فسألت عن الشجرة التي أوى إليها موسى فإذا هي شجرة خضراء ترف فأهوى إليها جملي وكان جائعا فأخذها جملي فعالجها ساعة ثم لفظها فدعوت الله لموسى عليه السلام ثم انصرفت ، وفي رواية عن ابن مسعود أنه ذهب إلى الشجرة التي كلم الله منها موسى كما سيأتي إن شاء الله فإله أعلم ، وقال السدي كانت الشجرة من شجر السمر ، وقال عطاء بن السائب لما قال موسى ( رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير ) أسمع المرأة

( فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ \* قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا بَتِ اسْتَنْجِرْهُ إِنْ خَيْرَ مَنْ اسْتَنْجَرْتَ الْقَوِي الْأَمِينُ \* قَالَ إني أريد أن أنسبكك إحدى ابنتي هتئين علي أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين \* قال ذلك بئني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي والله علي ما تقول وكيل )

لما رجعت المرأتان سريعا بالغم إلى أيهما أنكر حالهما بسبب مجيئهما سريعا فسألتهما عن خبرهما فقصتا عليه ما فعل موسى عليه السلام فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أيها قال الله تعالى ( فجاءته إحداهما تمشي على استحياء ) أي مشى الحرائر كما روى عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أنه قال : جاءت مستترة بكم درعها ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو نعيم حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون قال : قال عمر رضي الله عنه جاءت تمشي على استحياء قائمة بثوبها على وجهها ليست بسلفع من النساء ولاجة خراجه . هذا إسناد صحيح ، قال الجوهري : السلفع من الرجال الجسور ومن النساء الجرية السليطة ومن النوق الشديدة . ( قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ) وهذا تأدب في العبارة لم تطلبه طلبا مطلقا لثلاثي يوم ربية بل قالت : إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا يعني لثبيك ويكافئك على سقيك لثمننا ( فلما جاءه وقص عليه القصة ) أي ذكر له ما كان من أمره وما جرى له من السبب الذي خرج من أجله من بلده ( قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ) يقول طب نفسا وقرعينا فقد خرجت من مملكتهم فلاحكم لهم في بلادنا ، ولهذا قال ( نجوت من القوم الظالمين ) وقد اختلفت المفسرون في هذا الرجل من هو ؟ على أقوال أحدها أنه شعيب النبي عليه السلام الذي أرسل إلى أهل مدين وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء ، وقد قاله الحسن البصري وغير واحد ، ورواه ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد العزيز الأزدي حدثنا مالك بن أنس أنه بلغه أن شعيبا هو الذي قص عليه موسى القصة قال ( لا تخف نجوت من القوم الظالمين ) وقد روى الطبراني عن سلمة بن سعد الغزي أنه وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له « مرحبا بقوم شعيب وأختان موسى هديت » وقال آخرون بل كان ابن أخي شعيب وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب وقال آخرون كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة لأنه قال لقومه ( وما قوم لوط منكم ببعيد ) وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن ، وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى عليها السلام مدة طويلة تزيد على أربع مائة سنة كما ذكره غير واحد . وما قيل إن شعيبا عاش مدة طويلة إنما هو والله أعلم احتراز من هذا الإشكال ثم من القوي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه

لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن ههنا ، وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده كما سنذكره قريباً إن شاء الله ، ثم من الوجود في كتب بني إسرائيل أن هذا الرجل اسمه ثيرون والله أعلم . قال أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود : ثيرون هو ابن أخي شبيب عليه السلام وعن أبي حمزة عن ابن عباس قال الذي استأجر موسى يثري صاحب مدين رواه ابن جرير به ثم قال الصواب إن هذا لا يدرك إلا بخبر ولا خبر يجب به الحجة في ذلك وقوله تعالى ( قالت إحداها يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين ) أي قالت إحدى ابنتي هذا الرجل قيل هي التي ذهبت وراء موسى عليه السلام قالت لأبيها ( يا أبت استأجره ) أي لرعية هذه الغنم قال عمر وابن عباس وشريح القاضي وأبو مالك وقتادة ومحمد بن إسحاق وغير واحد لما قالت ( إن خير من استأجرت القوي الأمين ) قال لها أبوها وما عملك بذلك ؟ قالت له إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال وإني لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لي كوني من ورائي فاذا اختلف على الطريق فاحذني لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه . وقال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله هو ابن مسعود قال . أفرس الناس ثلاثة : أبو بكر حين تفرس في عمر صاحب ويوسف حين قال أكرمي مثواه وصاحبة موسى حين قالت : ( يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين ) قال ( إنني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين ) أي طلب إليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرعى غنمه ويزوجه إحدى ابنتيه هاتين ، قال شعيب الجبائي ، وما صفوريا وليا وقال محمد بن إسحاق صفوريا وشرفا ويقال ليا وقد استدل أصحاب أبي حنيفة بهذه الآية على صحة البيع فيما إذا قال بعتك أحد هذين العبدین بمائة فقال : اشتريت ، أنه يصح والله أعلم ، وقوله ( على أن تأجرني ثمانى حجج فإن آتممت عشراً فمن عندك ) أي على أن ترعى غنمي ثمانى سنين فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو اليك وإلا ففي الثمان كفاية ( وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين ) أي لأشاقك ولا أؤاذيك ولا أماريك وقد استدلوا بهذه الآية الكريمة لمذهب الأوزاعي فيما إذا قال بعتك هذا بعشرة تداً أو بعشرين نسيئة أنه يصح ويختار المشتري بأيهما أخذه صح ، وحمل الحديث الروى في سنن أبي داود « من باع بيعتين في يعة فله أو كسهما أو الربا » على هذا المذهب ، وفي الاستدلال بهذه الآية وهذا الحديث على هذه المذهب نظرياً ليس هذا موضع بسطه لطوله . والله أعلم . ثم قد استدل أصحاب الإمام أحمد ومن تبعهم في صحة استئجار الأجير بالطعمة والكسوة بهذه الآية واستأنسوا في ذلك بما رواه أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه في كتابه السنن حيث قال باب استئجار الأجير على طعام بطنه حدثنا محمد بن أحمد حدثنا محمد بن المنصور حدثنا بقية بن الوليد عن مسلمة ابن علي عن سعيد بن أبي أيوب عن الحارث بن يزيد عن علي بن رباح قال سمعت عتبة بن المنذر السلمي يقول كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقراً طسم حتى إذا بلغ قصة موسى قال « إن موسى آجر نفسه ثمانى سنين أو عشر سنين على عفة فرجه وطعام بطنه » وهذا الحديث من هذا الوجه ضعيف لأن مسلمة بن علي وهو الحشني الدمشقي البلاطي ضعيف الرواية عند الأئمة ولكن قد روى من وجه آخر وفيه نظر أيضاً وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان حدثنا الوليد حدثنا عبد الله بن لميعة عن الحارث بن يزيد الحضرمي عن علي بن رباح اللخمي قال سمعت عتبة بن المنذر السلمي صاحب رسول الله ﷺ يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن موسى عليه السلام آجر نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه » وقوله تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام ( قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل ) يقول إن موسى قال لصهره الأمر على ما قلت من أنك استأجرتني على ثمان سنين فإن آتممت عشراً فمن عندي فأنامتي فقلت أقلهما فقد برئت من العهد وخرجت من الشرط ولهذا قال ( أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي ) أي فلا حرج علي مع أن الكامل وإن كان مباحاً لكنه فاضل من جهة أخرى بدليل من خارج كما قال تعالى ( فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه ) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحزمة بن عمرو الأسلمي رضي الله عنه وكان كثير الصيام وسأله عن الصوم في السفر فقال « إن شئت فصم وإن شئت فأفطر » مع أن فعل الصيام راجح من دليل آخر ، هذا وقد دل الدليل على أن موسى عليه السلام إنما فعل كل الأجلين

وآتمهما وقال البخارى حدثنا محمد بن عبد الرحيم حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا مروان بن شجاع عن سالم الأفتس عن سعيد ابن جبير قال : قال سألني يهودى من أهل الحيرة أى الأجلين قضى موسى ؟ فقلت لأدرى حتى أقدم على جبر العرب فأسأله فقدمت على ابن عباس رضى الله عنه فسألته فقال قضى أكثرهما وأطيعهما إن رسول الله إذا قال فعل . هكذا رواه حكيم بن جبير وغيره عن سعيد بن جبير ، ووقع في حديث الفتون من رواية القاسم بن أبى أيوب عن سعيد بن جبير أن الذى سأله رجل من أهل النصرانية والأول أشبه والله أعلم . وقد روى من حديث ابن عباس مرفوعا قال ابن جرير حدثنا أحمد بن محمد الطوسى حدثنا الحميدى حدثنا سفيان حدثني إبراهيم بن يحيى بن أبى يعقوب عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « سألت جبريل أى الأجلين قضى موسى قال آتمهما وأكلهما » ورواه ابن أبى حاتم عن أبيه عن الحميدى عن سفيان وهو ابن عيينة حدثني إبراهيم بن يحيى بن أبى يعقوب وكان من أسناني أو أصغرمنى فذكره . وفي إسناده قلب وإبراهيم هذا ليس بمعروف . ورواه البزار عن أحمد بن أبان القرشى عن سفيان ابن عيينة عن إبراهيم بن أعين عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ فذكره ثم قال لانعرفه مرفوعا عن ابن عباس إلا من هذا الوجه . ثم قال ابن أبى حاتم قرئ على يونس بن عبد الأعلى أن أبانا ابن وهب أنبأنا عمرو بن الحارث عن يحيى بن ميمون الحضرمى عن يوسف بن تيرح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أى الأجلين قضى موسى ؟ قال « لا علم لى » فسأل رسول الله ﷺ جبريل فقال جبريل : لا علم لى ، فسأل جبريل ملكا فوفاقه فقال : لا علم لى ، فسأل ذلك الملك ربه عز وجل عما سأله عنه جبريل عما سأله عنه محمد صلى الله عليه وسلم فقال الرب عز وجل : قضى أبرهما وأبقاهما أو قال أذكاهما . وهذا مرسل وقد جاء مرسلا من وجه آخر وقال سنيد حدثنا حجاج عن ابن جريج قال : قال مجاهد إن النبي صلى الله عليه وسلم سأل جبريل أى الأجلين قضى موسى ؟ فقال سوف أسأل إسرائيل فسأله فقال سوف أسأل الرب عز وجل فسأله فقال أبرهما وأوقاهما ﴿ طريق أخرى مرسلة أيضا ﴾ قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو معشر عن محمد بن كعب القرظى قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الأجلين قضى موسى قال « أوقاهما وآتمهما » فهذه طرق متعاضدة ثم قدروى هذا مرفوعا من رواية أبى ذر رضى الله عنه . قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا أبو عبيد الله يحيى بن محمد بن السكن حدثنا إسحق بن إدريس حدثنا عويد بن أبى عمران الجونى عن أبيه عن عبد الله بن الصامت عن أبى ذر رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل أى الأجلين قضى موسى ؟ قال - « أوقاهما وأبرهما - قال - وإن سئلت أى المرأتين تزوج فقل الصغرى منهما » ثم قال البزار لانعلم يروى عن أبى ذر إلا بهذا الاسناد . وقد رواه ابن أبى حاتم من حديث عويد بن أبى عمران وهو ضعيف ثم قدروى أيضا نحوه من حديث عتبة بن النذر بزيادة غريبة جدا فقال أبو بكر البزار حدثنا عمر بن الخطاب السجستاني حدثنا يحيى بن بكير حدثنا ابن لهيعة حدثنا الحارث بن يزيد عن طلى بن رباح اللخمي قال سمعت عتبة ابن النذر يقول إن رسول الله ﷺ سئل أى الأجلين قضى موسى قال « أبرهما وأوقاهما » ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن موسى عليه السلام لما أراد فراق شعيب عليه السلام أمر امرأته أن تسأل أباهما ان يعطيها من غنمه ما يعيشون به فأعطاها ما ولدت غنمه فى ذلك العام من قالب لون قال فما مرت شاة إلا ضرب موسى جنبها بعصاه فولدت قوالب ألوان كلها وولدت ثنتين وثلاثا كل شاة ليس فيها فشوش ولا ضبوب ولا كهيئة تفوت الكف ولا تقول » وقال رسول الله ﷺ « إذا فتحتم الشام فإنكم ستجدون بقايا منها وهى السامرية » هكذا أورده البزار ، وقد رواه ابن أبى حاتم بأبسط من هذا فقال حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير حدثني عبد الله بن لهيعة وحديثنا أبو زرعة حدثنا صفوان أنبأنا الوليد أنبأنا عبد الله بن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمى عن طلى بن رباح اللخمي قال سمعت عتبة بن النذر السلمي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن موسى عليه السلام آجر نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه فلما وفى الأجل

— قيل يارسول الله أى الأجلين؟ — قال أبرهما وأوفاهما ، فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أبأها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به فأعطاها ما ولدت غنمه من قالبون من ولد ذلك العام وكانت غنمه سوداء حسناء فانطلق موسى عليه السلام إلى عصاه فسمأها من طرفها ثم وضعها في أدنى الحوض ثم أورها فسقاها ووقف موسى بإزاء الحوض فلم تصدر منها شاة إلا وضرب جنبها شاة شاة قال فأتأمت وألبنت ووضعت كلها قوالب ألوان إلا شاة أو شاتين ليس فيها فشوش قال يحيى ولا ضبون وقال صفوان ولا صبوب قال أبو زرعة الصواب طنوب ولا عزوز ولا ثعول ولا كميشة تفوت الكف قال النبي صلى الله عليه وسلم « لو افتتحتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهى السامرية » وحدثنأ أبو زرعة أنبأنا صفوان قال سمعت الوليد قال سألت ابن لهيعة ما الفشوش؟ قال التى تفش بلبنها واسعة الشخب قلت فما الضبوب قال الطويلة الضرع تجره قلت فما العزوز قال ضيقة الشخب قال فما الثعول؟ قال التى ليس لها ضرع إلا كهيشة حلتين قلت فما الكميشة؟ قال التى تفوت الكف كميشة الضرع صغير لا يدركه الكف . مدار هذا الحديث على عبد الله بن لهيعة المصرى وفى حفظه سوء وأخشى أن يكون رفعه خطأ والله أعلم . وينبغى أن يروى ليس فيها فشوش ولا عزوز ولا ضبوب ولا ثعول ولا كميشة لتذكر كل صفة ناقصة مع ما يقابلها من الصفات الناقصة وقد روى ابن جرير من كلام أنس بن مالك موقوفاً عليه ما يقارب بعضه بإسناد جيد فقال حدثنا محمد بن المننى حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أنى حدثنا قتادة حدثنا أنس بن مالك رضى الله عنه قال لما دعا نبى الله موسى عليه السلام صاحبه إلى الأجل الذى كان بينهما قال له صاحبه : كل شاة ولدت على غير لونها فلك ولدها فعمد موسى فرفع جبالاً على الماء فلما رأت الحيات فزعت فجالت جولة فولدن كلهن بلقا إلا شاة واحدا فذهب بأولادهن كلهن ذلك العام

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ وَأَن أَلْتِ عَصَاكَ فَمَا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدَبِّرًا لَّمْ يَعْقِبْ يَمُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضًا مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ أَنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴾

قد تقدم فى تفسير الآية قبلها أن موسى عليه السلام قضى أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما وأكلهما وأتاهما وقد يستفاد هذا أيضاً من الآية الكريمة حيث قال تعالى ( فلما قضى موسى الأجل ) أى الأكل منهما والله أعلم ، وقال ابن أبى نجیح عن مجاهد قضى عشر سنين وبعدها عشرأ آخر ، وهذا القول لم أره لغيره وقد حكاه عنه ابن أبى حاتم وابن جرير فأله أعلم ، وقوله ( وسار بأهله ) قالوا كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله فعزم على زيارتهم فى خفية من فرعون وقومه فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التى وهبها له صهره فسلك بهم فى ليلة مطيرة مظلمة باردة فنزل منزلاً فجعل كلما أورى زنده لا يضىء شيئاً فتعجب من ذلك ، فبينأهو كذلك ( آنس من جانب الطور نارا ) أى رأى نارا تضىء على بعد ( فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا ) أى حتى أذهب إليها ( لعلى آتيكم منها بخبر ) وذلك لأنه قد أضل الطريق ( أو جذوة من النار ) أى قطعة منها ( لعلكم تصطلون ) أى تستدفئون بها من البرد قال الله تعالى ( فلما أتاهأ نودى من شاطئ الوادى الأيمن ) أى من جانب الوادى مما يلى الجبل عن يمينه من ناحية الغرب كما قال تعالى ( وما كنت

بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر) فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة والجبل الغربي عن يمينه والنار وجدها تضطرم في شجرة خضراء في لحف الجبل مما يلي الوادي فوق باهتا في أمرها فناداه ربه ( من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ) قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن عبد الله قال : رأيت الشجرة التي نودي منها موسى عليه السلام سمرة خضراء ترف إسناده مقارب ، وقال محمد بن إسحاق عن بعض من لا يهتم عن وهب بن منبه قال : شجرة من العليق وبعض أهل الكتاب يقول إنها من العوسج وقال قتادة هي من العوسج وعصاه من العوسج ، وقوله تعالى ( أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين ) أي الذي يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين الفعال لما يشاء لا إله غيره ولا رب سواه تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله سبحانه . وقوله ( وأن ألق عصاك ) أي التي في يدك كما قرره على ذلك في قوله تعالى ( وما تلك يمينك يا موسى ؟ قال هي عصا أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى ) والمعنى أما هذه عصاك التي تعرفها ( ألقها فألقاها فإذا هي حية تسعى ) فعرف وتحقق أن الذي يكلمه ويخاطبه هو الذي يقول للشيء كن فيكون كما تقدم بيان ذلك في سورة طه : وقال ههنا ( فلما رآها تهتز ) أي تضطرب ( كأنها جان ولي مدبر ) أي في حركتها السريعة مع عظم خلقتها وقوايمها واتساع فمها واصطكاك أنيابها وأضراسها بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعها تنحدر في فيها تتقعقع كأنها حادرة في واد فعند ذلك ( ولي مدبر ولم يعقب ) أي ولم يكن يلتفت لأن طبع البشرية ينفر من ذلك فلما قال الله ( يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ) رجع فوقف في مقامه الأول ثم قال الله تعالى ( اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ) أي إذا أدخلت يدك في جيب درعك ثم أخرجتها فانها تخرج تتلألاً كأنها قطعة قمر في لمان البرق ، ولهذا قال ( من غير سوء ) أي من غير برص وقوله تعالى ( واضمم إليك جناحك من الرهب ) قال مجاهد من الفزع وقال قتادة من الرعب وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير مما حصل لك من خوفك من الحية والظاهر أن المراد أعم من هذا وهو أنه أمر عليه السلام إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب وهو يديه فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يده على فؤاده فإنه يزول عنه ما يجده أو يخف إن شاء الله تعالى وبه الثقة . قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا الربيع بن تغلب الشيخ صالح أخبرنا أبو إسماعيل المؤدب عن عبد الله بن مسلم عن مجاهد قال : كان موسى عليه السلام قدم لي قلبه رعبان فرعون فكان إذا رآه قال : اللهم إني أدرك بك في نحره وأعوذ بك من شره فنزع الله ما كان في قلب موسى عليه السلام وجعله في قلب فرعون فكان إذا رآه بال كما يقول الحمار . وقوله تعالى ( فذائك برهانان من ربك ) يعني إلقاء العصا وجعلها حية تسعى ، وإدخاله يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء دليلان قاطعان واضحان على قدرة الفاعل المختار وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه ولهذا قال تعالى ( إلى فرعون وملئه ) أي وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع ( إنهم كانوا قوما فاسقين ) أي خارجين عن طاعة الله مخالفين لأمره ودينه

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ \* وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْضَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ \* قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ مُلْكًا مَلَكًا فَلَا يُصِلُونَ إِلَيْكَ مَاتًا بِتَأْتِينَا أَنْتُمْ وَمَنْ اتَّبَعَكُمُ الْفٰلِغُونَ ﴾

لما أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون الذي إنما خرج من ديار مصر فراراً منه وخوفاً من سطوته ( قال رب إني قتل منهم نفساً ) يعني ذلك القبطي ( فأخاف أن يقتلون ) أي إذا رأوني ( وأخي هارون هو أفصح مني لساناً ) وذلك أن موسى عليه السلام كان في لسانه لثغة بسبب ما كان تناول تلك الجرة حين خير بينها وبين الجرة أو الدررة فأخذ الجرة فوضعها على لسانه فحصل فيه شدة في التعبير ولهذا قال ( واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي \* واجعل

لى وزيراً من أهلى هارون أخى اشد به أزرى وأشركه فى أمرى) أى يؤنسنى فى أمرتى به من هذا المقام العظيم وهو القيام بأعباء النبوة والرسالة إلى هذا الملك المتكبر الجبار العنيد ولهذا قال (وأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردها) أى وزيراً ومعيناً ومقويماً لأمرى يصدقنى فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل لأن خبر الاثنين أنجح فى النفوس من خبر الواحد ولهذا قال (إنى أخاف أن يكذبون) وقال محمد بن إسحاق (ردها يصدقنى) أى يبين لهم عنى ما أكلهم به فإنه يفهم عنى ما لا يفهمون فلما سأل ذلك موسى قال الله تعالى (سنشد عضدك بأخيك) أى سنقوى أمرك ونعزجانك بأخيك الذى سألت له أن يكون نبياً معك كما قال فى الآية الأخرى (قد أوتيت سؤالك يا موسى) وقال تعالى (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً) ولهذا قال بعض السلف ليس أحد أعظم منة على أخيه من موسى على هارون عليهما السلام فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبياً ورسولاً معه إلى فرعون وملئه ولهذا قال تعالى فى حق موسى (وكان عند الله وجيهاً) وقوله تعالى (ونجعل لكما سلطاناً) أى حجة قاهرة (فلا يصلون إليكما بآياتنا) أى لاسبيل لهم إلى الوصول إلى أذا كما بسبب إبلاغكما آيات الله كما قال تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك - إلى قوله - والله يعصمك من الناس) وقال تعالى (الذين يبلغون رسالات الله - إلى قوله - وكفى بالله ناصراً ومعيناً ومؤيداً ولهذا أخبرهما أن العاقبة لها ولن اتبعهما فى الدنيا والآخرة فقال تعالى (أنها ومن اتبعكما الغالبون) كما قال تعالى (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز) وقال تعالى (إنا لننصر رسلاً والذين آمنوا فى الحياة الدنيا) إلى آخر الآية ووجه ابن جرير على أن المعنى ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما ثم يتدىء فيقول (بآياتنا أنها ومن اتبعكما الغالبون) تقديره أنها ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا ، ولا شك أن هذا المعنى صحيح وهو حاصل من التوجيه الأول فلا حاجة إلى هذا والله أعلم

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَىٰ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَابَائِنَا الْأُولَىٰ ۗ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ۗ ﴾

يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه وعرضه ما آتاها الله من المعجزات الباهرة والدلالة القاهرة على صدقتهما فيها أخبرا به عن الله عز وجل من توحيده واتباع أوامره فلما عاين فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه وتحققوه وأيقنوا أنه من عند الله عدلوا بكفرهم وبغيبهم إلى العناد والمباهة وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق فقالوا (ما هذا إلا سحر مفترى) أى مفتعل مصنوع وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه فما صعد معهم ذلك . وقوله (وما سمعنا بهذا فى آباءنا الأولين) يعنون عبادة الله وحده لا شريك له ، يقولون ما رأينا أحداً من آباءنا على هذا الدين ، ولم نر الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى فقال موسى عليه السلام محيياً لهم (ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده) يعنى منى ومنكم ، سيفصل بينى وبينكم ولهذا قال (ومن تكون له عاقبة الدار) أى من النصره والظفر والتأييد (إنه لا يفلح الظالمون) أى الشركون بالله عز وجل

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْعَل لِّي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۗ وَأَسْتَكَبرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بَغِيْرَ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۗ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَأَنظَرُوْهُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ۗ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ۗ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ۗ ﴾

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطمعانه واقترائه في دعواه الالهية لنفسه القبيحة لعنه الله كما قال الله تعالى ( فاستخف قومه فأطاعوه ) الآية وذلك لأنه دعاهم إلى الاعتراف له بالالهية فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم وسخافة أذهانهم ولهذا قال ( يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ) وقال تعالى إخبارا عنه ( فحشر قنادى \* فقال أنار بكم الأمل \* فأخذته الله نكال الآخرة والأولى \* إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ) يعني أنه جمع قومه ونادى فيهم بصوته العالى مصر حالهم بذلك فأجابوه سامعين مطيعين ولهذا انتقم الله تعالى منه فجعله عبرة لغيره في الدنيا والآخرة وحتى إنه واجه موسى السكليم بذلك فقال ( لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين ) وقوله ( فأوقدلى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى ) يعنى أمر وزيره هامان ومدير رعيته ومشير دولته أن يوقد له على الطين يعنى يتخذ له آجراً لبناء الصرح وهو القصر النيف الرفيع العالى كما قال فى الآية الأخرى ( وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصدعن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب ) وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح الذى لم يرب فى الدنيا بناء أعلى منه إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير فرعون ولهذا قال ( وإنى لأظنه من الكاذبين ) أى فى قوله إن ثم ربا غيرى لا أنه كذبه فى أن الله تعالى أرسله لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع جل وعلا فانه قال ( وما رب العالمين ؟ ) وقال ( لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين ) وقال ( يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى ) وهذا قول ابن جرير . وقوله تعالى ( واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ) أى طغوا وتجبروا وأكثروا فى الأرض الفساد واعتقدوا أنه لا قيامة ولا معاد ( فصب عليهم ربك صوت عذاب إن ربك لبالمرصاد ) ولهذا قال تعالى ههنا ( فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم ) أى أغرقناهم فى البحر فى صبيحة واحدة فلم يبق منهم أحد ( فانظر كيف كان عاقبة الظالمين \* وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ) أى لمن سلك وراءهم وأخذ بطريقتهم فى تكذيب الرسل وتعطيل الصانع ( ويوم القيامة لا ينصرون ) أى فاجتمع عليهم خزي الدنيا موصولا بذلك الآخرة كما قال تعالى ( أهلكناهم فلا ناصر لهم ) وقوله تعالى ( وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ) أى وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على السنة المؤمنين من عباده التبعين لرسله كما أنهم فى الدنيا ملعونون على السنة الأنبياء وأتباعهم كذلك ( ويوم القيامة هم من المقبوحين ) قال قتادة : وهذه الآية كقوله تعالى ( وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد الرفود )

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَالَمِهِمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى السكليم ، عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم ، من إنزال التوراة عليه بعد ما أهلك فرعون وملائه . وقوله تعالى ( من بعدما أهلكنا القرون الأولى ) يعنى أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامة بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين كما قال تعالى ( وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة \* فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ) وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا محمد وعبد الوهاب قالوا حدثنا عوف عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى قال ما أهلك الله قوما بعدذاب من السماء ولا من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض غير أهل القرية الذين مسخوا قرده بعد موسى ثم قرأ ( ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ) الآية ورواه ابن أبي حاتم من حديث عوف بن أبى جميلة الأعرابى بنحوه وهكذا رواه أبو بكر البزار فى مسنده عن عمرو بن عطى الفلاس عن يحيى القطان عن عوف بن أبى نضرة عن أبى سعيد موقوفاًم رواه عن نصر بن على عن عبد الأعلى عن عوف بن أبى نضرة عن أبى سعيد رفعه إلى النبي ﷺ قال « ما أهلك الله قوما بعدذاب من السماء ولا من الأرض إلا قبل موسى » ثم قرأ ( ولقد آتينا موسى الكتاب من بعدما أهلكنا القرون الأولى ) الآية .

وقوله ( بصائر للناس وهدى ورحمة ) أى من العمى والعمى وهدى إلى الحق ورحمة أى إرشادا إلى العمل الصالح (لعلمهم يتذكرون) أى لعل الناس يتذكرون به ويهتدون بسببه

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ \* وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ \* وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ \* وَلَوْ لَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى منها على برهان نبوة محمد ﷺ حيث أخبر بالغيوب الماضية خيرا كأن سامعه شاهد وراءه لما تقدم وهو رجل أمى لا يقرأ شيئا من الكتب نشأ بين قوم لا يعرفون شيئا من ذلك كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها قال تعالى ( وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ) الآية أى وما كنت حاضرا لذلك ولكن الله أوحاه إليك ، وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه وما كان من إنجاء الله وإغراق قومه ثم قال تعالى ( تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ) الآية وقال في آخر السورة ( ذلك من أنباء القرى نقصه عليك ) وقال بعد ذكر قصة يوسف ( ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ) الآية وقال في سورة طه ( كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ) الآية وقال ههنا بعدما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها وكيف كان ابتداء إichاء الله إليه وتكليمه له ( وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ) يعنى ما كنت بجانب الجبل الغربي الذى كلم الله موسى من الشجرة التى هى شرقية على شاطئ الوادى ( وما كنت من الشاهدين ) لذلك ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليك ذلك ليكون حجة وبرهانا على قرون قد تطاول عهدها ونسوا حجج الله عليهم وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين : وقوله تعالى ( وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ) أى وما كنت مقيا في أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا حين أخبرت عن نبيا شعيب وما قال لقومه وما ردوا عليه ( ولكننا كنا مرسلين ) أى ولكن نحن أوحينا إليك ذلك وأرسلناك إلى الناس رسولا ( وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ) قال أبو عبد الرحمن النسائي في التفسير من سننه أخبرنا على بن حجر أخبرنا عيسى بن يونس عن حمزة الزيات عن الأعمش عن على بن مدرك عن أبي زرعة عن أبي هريرة رضى الله عنه ( وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ) قال نودوا أن: يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني وأجبتكم قبل أن تدعوني وهكذا رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث جماعة عن حمزة وهو ابن حبيب الزيات عن الأعمش ورواه ابن جرير من حديث وكيع ويحيى بن عيسى عن الأعمش عن على بن مدرك عن أبي زرعة وهو ابن عمرو بن جرير أنه قال ذلك من كلامه والله أعلم .

وقال مقاتل بن حيان ( وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ) أمتك في أصلاب آبائهم أن يؤمنوا بك إذا بعثت. وقال قتادة ( وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ) موسى وهذا والله أعلم أشبه بقوله تعالى ( وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ) ثم أخبر ههنا بصيغة أخرى أخص من ذلك وهو النداء كما قال تعالى ( وإذ نادى ربك موسى ) وقال تعالى ( إذ ناداه ربه بالوادى المقدس طوى ) وقال تعالى ( وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ) وقوله تعالى ( ولكن رحمة من ربك ) أى ما كنت مشاهدا لشيء من ذلك ولكن الله تعالى أوحاه إليك وأخبرك به رحمة منه بك وبالعباد بإرسالك اليهم ( لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ) أى لعلهم يهتدون بما جئتكم به

من الله عز وجل ( ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا ) الآية أى وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة ولينقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير كما قال تعالى بعد ذكره إنزال كتابه المبارك وهو القرآن ( أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين \* أو تقولوا لو أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ) وقال تعالى ( رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ) وقال تعالى ( يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير ) الآية والآيات في هذا كثيرة

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْتِيَ مِثْلَ مَا أُوْتِيَ مُوسَىٰ أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوْتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ \* قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُٓ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ \* وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد صلى الله عليه وسلم قالوا على وجه التعتن والعناد والكفر والجهل والإلحاد ( لولا أوتى مثل ما أوتى موسى ) الآية يعنون والله أعلم من الآيات الكثيرة مثل العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وتقيص الزروع والثمار مما يضيق على أعداء الله وكفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى إلى غير ذلك من الآيات الباهرة ، والحجج القاهرة ، التي أجراها الله تعالى على يدي موسى عليه السلام حجة وبرهاناً له على فرعون وملئه وبنى إسرائيل ، ومع هذا كله لم ينبجج في فرعون وملئه بل كفروا بموسى وأخيه هرون كما قالوا لها ( أجتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين ) وقال تعالى ( فكذبوهما فكانوا من المهلكين ) ولهذا قال هاهنا ( أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ) أى أولم يكفروا بالبشر بما أوتى موسى من تلك الآيات العظيمة ( قالوا ساحران تظاهرا ) أى تعاونا ( وقالوا إنا بكل كافرون ) أى بكل منهما كافرون ، ولشدة التلازم والتصاحب والمقاربة بين موسى وهرون دل ذكر أحدهما على الآخر كما قال الشاعر :

فما أدري إذا يممت أرضاً أريد الحخير أيهما يليني

أى فإدري فإدري يليني الحخير أو الشر . قال مجاهد : أمرت اليهود قريشا أن يقولوا لمحمد صلى الله عليه وسلم ذلك فقال الله ( أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا ساحران تظاهرا ) قال يعنى موسى وهرون صلى الله عليهما وسلم ( تظاهرا ) أى تعاونا وتناصرنا وصدق كل منها الآخر ؟ وبهذا قال سعيد بن جبير وأبورزين في قوله ( ساحران ) يعنون موسى وهرون وهذا قول جيد قوى والله أعلم ، وقال مسلم بن يسار عن ابن عباس ( قالوا ساحران تظاهرا ) قال يعنون موسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم وهذا رواية الحسن البصرى . وقال الحسن وقتادة يعنى عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم وهذافيه بعد لأن عيسى لم يجر له ذكرهنا والله أعلم . وأما من قرأ ( ساحران تظاهرا ) فقال ظى بن أبى طلحة والعمري عن ابن عباس يعنون التوراة والقرآن وكذا قال عاصم الجندى والسدى وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم قال السدى : يعنى صدق كل واحد منهما الآخر وقال ، عكرمة : يعنون التوراة والإنجيل وهورواية عن أبى زرعة واختاره ابن جرير . وقال الضحاك وقتادة . الإنجيل والقرآن والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب والظاهر على قراءة ( ساحران ) أنهم يعنون التوراة والقرآن لأنه قال بعده ( قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه ) وكثيراً ما يقرن الله

بين التوراة والقرآن كما في قوله تعالى ( قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس - إلى أن قال - وهذا كتاب أنزلناه مبارك ) وقال في آخر السورة ( ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن ) الآية وقال ( وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون ) وقالت الجن ( إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه ) وقال ورقة بن نوفل : هذا التاموس الذي أنزل على موسى . وقد علم بالضرورة لذوى الأبواب أن الله تعالى لم ينزل كتابا من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزل على موسى بن عمران عليه السلام وهو الكتاب الذي قال الله فيه ( إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ) والإنجيل إنما أنزل متمما للتوراة ومحملا لبعض ما حرم على بني إسرائيل ولهذا قال تعالى ( قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ) أى فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل قال الله تعالى ( فإن لم يستجيبوا لك ) أى فإن لم يجيبوك عما قلت لهم ولم يتبعوا الحق ( فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ) أى بلا دليل ولا حجة ( ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ) أى بغير حجة مأخوذة من كتاب الله ( إن الله لا يهدي القوم الظالمين ) . وقوله تعالى ( ولقد وصلنا لهم القول ) قال مجاهد فصلنا لهم القول . وقال السدى بينا لهم القول وقال قتادة : يقول تعالى أخبرهم كيف صنع بمن مضى وكيف هو صانع ( لعلهم يتذكرون ) قال مجاهد وغيره ( وصلنا لهم ) يعنى قرىنا وهذا هو الظاهر لكن قال حماد بن سلمة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة عن رفاعة - رفاعة هذا هو ابن قرظة القرظى ، وجعله ابن منده : رفاعة بن شمواخ خال صفية بنت حيي وهو الذى طلق تميمة بنت وهب التى تزوجها بعده عبد الرحمن ابن الزبير بن باطا ، كذا ذكره ابن الأثير - قال نزلت ( ولقد وصلنا لهم القول ) فى عشرة أنا أحدهم . رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديثه

﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ \* وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ \* أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَوَدَّعُوا السَّيْئَاتِ وَتَمَارَرْتُمْ بِمَنْفِقُونَ \* وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَّمْ عَلَيْكُمْ لَّا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾

يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن كما قال تعالى ( الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ) وقال تعالى ( وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله ) وقال تعالى ( إن الذين أتوا العلم من قبله إذا تلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ) وقال تعالى ( ولتجدن أقرههم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى - إلى قوله - فاكتبنا مع الشاهدين ) قال سعيد بن جبير نزلت فى سبعين من القيسيين بعثهم النجاشى فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم ( يس والقرآن الحكيم ) حتى ختمها فجعلوا يبيكون وأسلموا ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى ( الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون \* وإذا تلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ) يعنى من قبل هذا القرآن كنا مسلمين أى موحدين مخلصين لله مستجيبين له . قال الله تعالى ( أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ) أى هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثانى ولهذا قال ( بما صبروا ) أى على اتباع الحق فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس وقد ورد فى الصحيح من حديث عامر الشعبي عن أبى بردة عن أبى موسى الأشعري رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين . رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بى ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها

ثم أعتقها فزوجها . وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن إسحق السيلحي حدثنا ابن لهيعة عن سليمان بن عبد الرحمن عن القاسم بن أبي أمامة قال : إني لتحت راحلة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فقال قولاً حسناً جميلاً وقال فيقال « من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين وله مالنا وعليه ما علينا » وقوله تعالى ( ويدرون بالحسنة السيئة ) أي لا يقابلون السيء بمثله ولكن يعفون ويصفحون ( ومما رزقناهم ينفقون ) أي ومن الذي رزقهم من الحلال ينفقون على خلق الله في النفقات الواجبة لأهلهم وأقاربهم والزكاة المفروضة والمستحبة من التطوعات وصدقات النفل والقربات وقوله تعالى ( وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ) أي لا يخاطبون أهله ولا يعاشرهم بل كما قال تعالى ( وإذا مروا باللغو مروا كراماً ) ( وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ) أي إذا سلفه عليهم سفيه وكلهم بما لا يليق بهم الجواب عنه أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب ؛ ولهذا قال عنهم إنهم قالوا ( لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ) أي لا نريد طريق الجاهلين ولا نجها . قال محمد بن إسحق في السيرة ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة فوجدوه في المسجد فجلسوا إليه وكلوه وساءلوه ورجال من قريش في أنديةهم حول الكعبة فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا دعاهم إلى الله تعالى وتلا عليهم القرآن فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقالوا لهم خبيك الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم تترادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال مانعكم ركباً أحق منكم أو كما قالوا لهم فقالوا لهم سلام عليكم لانجاهلكم لنا ما نحن عليه ولكم ما أتمم عليه لم نأل أنفسنا خيراً . قال ويقال إن النفر النصارى من أهل نجران فالله أعلم أي ذلك كان . قال ويقال والله أعلم ان قيمهم نزلت هذه الآيات (الدين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون - إلى قوله - لا نبتغي الجاهلين ) قال وسألت الزهري عن هذه الآيات فيمن نزلت قال ما زلت أسمع من علمائنا أنهم نزلن في النجاشي وأصحابه رضى الله عنهم والآيات اللاتي في سورة المائدة ( ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً - إلى قوله - فاكتبنا مع الشاهدين )

﴿ إِنَّكَ لَاتَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نَتَّخِطِفُ مِنْ أَنْزِلِنَا أَوْ لَمْ نَكُنْ لَهُمْ حَرَمًا ؕ إِنَّمَا يُجِيبُ إِلَيْهِ تَمَرَاتٌ كُلُّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿

يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم إنك يا محمد ( لاتهدى من أحببت ) أي ليس إليك ذلك إنما عليك البلاغ والله يهدي من يشاء وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة كما قال تعالى ( ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء ) . وقال تعالى ( وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ) وهذه الآية أخص من هذا كله فانه قال ( إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ) أي هو أعلم بمن يستحق الهداية بمن يستحق الغواية وقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان يحوطه وينصره ويقوم في صفه ويحبه حباً شديداً طبعياً لا شرعياً فلما حضرته الوفاة وحان أجله دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان والدخول في الإسلام فسبق القدر فيه واختطف من يده فاستمر على ما كان عليه من الكفر والله الحكمة التامة قال الزهري حدثني سعيد بن المسيب عن أبيه وهو للمسيب بن حزن المخزومي رضى الله عنه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية ابن المغيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا عم قبل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله » فقال أبو جهل

وعبد الله بن أبي أمية يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان له بتلك المقالة حتى كان آخر ما قال هو على ملة عبد المطلب وأبي أن يقول لا إله إلا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » فأنزل الله تعالى ( ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربي ) وأنزل في أبي طالب ( إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ) أخرجه من حديث الزهري وهكذا رواه مسلم في صحيحه والترمذي من حديث يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة قال : لما حضرت وفاة أبي طالب أثناء رسول الله ﷺ فقال « يا عماء قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة » فقال لولا أن تعيرني بها قريش يقولون ما حملة عليه إلا جزع الموت لأقررت بها عينك لا أقولها إلا لأقربها عينك فأنزل الله تعالى ( إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ) وقال الترمذي حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن كيسان ، ورواه الإمام أحمد عن يحيى بن سعيد القطان عن يزيد بن كيسان حديثي أبو حازم عن أبي هريرة فذكره بنحوه وهكذا قال ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبي وقتادة انها نزلت في أبي طالب حين عرض عليه رسول الله ﷺ أن يقول لا إله إلا الله فأبى عليه ذلك وقال أي ابن أخي ملة الأشياخ وكان آخر ما قاله هو على ملة عبد المطلب وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو سلمة حدثنا حماد بن سلمة حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن أبي راشد قال كان رسول قيصر جاء إلى قال كتب معي قيصر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا فأنته فدفعت الكتاب فوضعه في حجره ثم قال « بمن الرجل ؟ » قلت من تنوخ قال « هل لك في دين أبيك إبراهيم الحنيفة » قلت إني رسول قوم وعلى ذنوبهم حتى أرجع إليهم فضحك رسول الله ﷺ ونظر إلى أصحابه وقال « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » وقوله تعالى ( وقالوا إن تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا ) يقول تعالى مخبرا عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباع الهدى حيث قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ( إن تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا ) أي نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين أن يقصدونا بالأذى والحاربة ويتخطفونا أي كنا قال الله تعالى مجيبا لهم ( أو لم يمكن لهم حرما آمنا ) يعني هذا الذي اعتذروا به كذب وباطل لأن الله تعالى جعلهم في بلد آمن وحرم معظم آمن منذ وضع فكيف يكون هذا الحرم آمنا لهم في حال كفرهم وشركهم ولا يكون آمنا لهم وقد أسلموا وتابوا الحق ؟ وقوله تعالى ( يحيى إليه ثمرات كل شيء ) أي من سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره وكذلك للتاجر والأمتعة ( رزقا من لدنا ) أي من عندنا ( ولكن أكثرهم لا يعلمون ) ولهذا قالوا ما قالوا وقد قال النسائي أنبأنا الحسن بن محمد حدثنا الحجاج عن ابن جريج أخبرني ابن أبي مليكة قال : قال عمرو بن شعيب عن ابن عباس ولم يسمعه منه أن الحارث بن عامر بن نوفل الذي قال ( إن تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا )

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ \* وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ؕ وَإِنَّا لَنُؤْتِيكَ الْفُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾

يقول تعالى معرضاً بأهل مكة في قوله تعالى ( وكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا ) أي طغت وأشرت وكفرت نعمة الله فيها أنعم به عليهم من الأرزاق كما قال في الآية الأخرى ( وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان - إلى قوله - فأخذهم العذاب وهم ظالمون ) ولهذا قال تعالى ( فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ) أي دثرت ديارهم فلا ترى إلا مساكنهم وقوله تعالى ( وكنا نحن الوارثين ) أي رجعت خرابا ليس فيها أحد وقد ذكر ابن أبي حاتم ههنا عن ابن مسعود أنه سمع كعبا يقول لعمر : إن سليمان عليه السلام قال للهامة

يعنى البومة - مالك لا تأكلين الزرع ؟ قالت لأنه أخرج آدم من الجنة بسببه ، قال فمالك لا تشربين الماء ؟ قالت لأن الله تعالى أغرق قوم نوح به ، قال فمالك لا تأوين إلى الحراب ؟ قالت لأنه ميراث الله تعالى ثم تلا ( وكنا نحن الوارثين ) ثم قال تعالى مخبراً عن عدله وأنه لا يهلك أحداً ظالماً له وإنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم ولهذا قال ( وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها ) وهى مكة ( رسولاً يتلو عليهم آياتنا ) فيه دلالة على أن النبي الأمى وهو محمد صلى الله عليه وسلم المبعوث من أم القرى رسول إلى جميع القرى من عرب وأعجم كما قال تعالى ( لتنذر أم القرى ومن حولها ) وقال تعالى ( قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ) وقال ( لأنذركم به ومن بلغ ) وقال ( ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ) وتعام الدليل قوله تعالى ( وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً ) الآية فأخبر تعالى أنه سيهلك كل قرية قبل يوم القيامة وقد قال تعالى ( وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ) فجعل تعالى بعثة النبي الأمى شاملة لجميع القرى لأنه مبعوث إلى أمها وأصلها التي ترجع إليها وثبت في الصحيحين عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال « بعثت إلى الأحمر والأسود » ولهذا ختم به النبوة والرسالة فلا نبي بعده ولا رسول بل شرعه باق بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة وقيل المراد بقوله ( حتى يبعث في أمها رسولاً ) أى أصلها وعظيبتها كأهات الرسائيق والأقاليم ، حكاه الزمخشري وابن الجوزي وغيرهما وليس يبعد

﴿ وَمَا أوتيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَبْتَغُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ \* أَمْ مَنْ وَعَدَنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُخْضَرِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وما فيها من الزينة الدنيئة والزهرة الفانية بالنسبة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم كما قال تعالى ( ما عندكم ينفد وما عند الله باق ) وقال ( وما عند الله خير للأبرار ) وقال ( وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع ) وقال تعالى ( بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والله ما الحياة الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم أصبعه في اليم فلينظر ماذا يرجع إليه » وقوله تعالى ( أفلا تعقلون ؟ ) أى أفلا يعقل من يقدم الدنيا على الآخرة . وقوله تعالى ( أئمن وغدناه وعداً حسناً فهو لاقية كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المخضرين ) يقول تعالى : أئمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح الأعمال من الثواب الذى هو صائر إليه لا محالة كمن هو كافر مكذب بقاء الله ووعدوه ووعدوه فهو ممتع في الحياة الدنيا أياماً قلائل ( ثم هو يوم القيامة من المخضرين ) قال مجاهد وقتادة من المعذبين ثم قد قيل إنها نزلت في رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي أبي جهل . وقيل في حمزة وطى وأبي جهل وكلاهما عن مجاهد والظاهر أنها عامة وهذا كقوله تعالى إخباراً عن ذلك المؤمن حين أشرف على صاحبه وهو في الدرجات وذلك في الدرجات فقال ( ولولا نعمة ربى لكنت من المخضرين ) وقال تعالى ( ولقد علمت الجنة إنهم لمخضرون )

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ \* قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ \* وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ \* وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ \* فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ \* فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يوجب به الكفار المشركين يوم القيامة حيث يناديهم فيقول ( أين شركائي الذين كنتم تزعمون )  
يعنى أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا من الأصنام والأنداد هل ينصرونكم أو ينتصرون ، وهذا على  
سبيل التقرير والتهديد كما قال تعالى ( ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم  
وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ) . وقوله ( قال الذين  
حق عليهم القول ) يعنى الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر ( ربنا هؤلاء الذين أغويانا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك  
ما كانوا إيانا يعبدون ) فشهدوا عليهم أنهم أغوهم فاتبعوهم ثم تبرءوا من عبادتهم كما قال تعالى ( واتخذوا من  
دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ) وقال تعالى ( ومن أضل ممن يدعو من  
دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون \* وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا  
بعبادتهم كافرين ) وقال الخليل عليه السلام لقومه ( إنما اتخذتم من دون الله آوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم  
يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ) الآية وقال الله تعالى ( إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا  
ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب - إلى قوله - وما هم بخارجين من النار ) ولهذا قال ( وقيل ادعوا شركاءكم ) أى  
ليخلصوكم مما أتم فيه كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا ( فدعوه فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب ) أى وتيقنوا  
أنهم صائرون إلى النار لا محالة . وقوله ( لو أنهم كانوا يهتدون ) أى فودوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من  
المهتدين في الدار الدنيا وهذا كقوله تعالى ( ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوه فلم يستجيبوا لهم وجعلنا  
بينهم موبقاً \* ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً ) . وقوله ( ويوم يناديهم فيقول  
ماذا أجبتم المرسلين ) النداء الأول عن سؤال التوحيد وهذا فيه إثبات النبوات ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم  
وكيف كان حالكم معهم وهذا كما يسئل العبد في قبره . من ربك ومن نبيك وما دينك ؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله  
إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأما الكافر فيقول هاه هاه لا أدري ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت  
لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ولهذا قال تعالى ( فعميت عليهم الأنبياء يومئذ فهم  
لا يتساءلون ) قال مجاهد فعميت عليهم الحجيج فهم لا يتساءلون بالأنساب وقوله ( فأما من تاب وآمن وعمل  
صالحاً ) أى في الدنيا ( فعسى أن يكون من المفلحين ) أى يوم القيامة وعسى من الله موجبة فان هذا واقع بفضل  
الله ومنته لا محالة

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ \* وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُسْكِنُ  
صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ \* وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأُولَى وَالْآخِرَةُ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار ، وأنه ليس له في ذلك منازع ولا معقب قال تعالى ( وربك يخلق ما يشاء  
ويختار ) أى ما يشاء فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فالأمور كلها خيرا وشرها بيده ومرجعها إليه . وقوله ( ما كان  
لهم الخيرة ) نفي على أصح القولين كقوله تعالى ( وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم  
الخيرة من أمرهم ) وقد اختار ابن جرير أن ( ما ) ههنا بمعنى الذى تقديره : ويختار الذى لهم فيه خيرة ، وقد احتج بهذا  
السلك طائفة المعتزلة على وجوب مراعاة الأصلح ، والصحيح أنها نافية كما نقله ابن أبي حاتم عن ابن عباس  
وغيره أيضاً فان المقام في بيان انفرادة تعالى بالخلق والتقدير والاختيار وأنه لا نظير له في ذلك ولهذا قال  
( سبحانه الله وتعالى عما يشركون ) أى من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئاً ثم قال تعالى ( وربك  
يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ) أى يعلم ما تكن الضمائر ، وما تنطوى عليه السرائر ، كما يعلم ما تبديه الظواهر من  
سائر الخلائق ( سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن مستخف بالليل وسارب بالنهار ) . وقوله

(وهو الله لا إله إلا هو) أى هو المنفرد بالإلهية فلا معبود سواه ، كما لا رب يخلق ما يشاء ويختار سواه (له الحمد فى الأولى والآخرة) أى فى جميع ما يفعله هو المحمود عليه بعدله وحكمته (وله الحكم) أى الذى لا معقب له لغيره وغلبته وحكمته ورحمته ( وإليه ترجعون ) أى جميعكم يوم القيامة فيجزى كل عامل بعمله من خير وشر ولا يخفى عليه منهم خافية فى سائر الأعمال

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ \* قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ \* وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

يقول تعالى ممثنا على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار للذين لا قوام لهم بدونهما وبين أنه لو جعل الليل دائما عليهم سرمداً إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم ولسئمته النفوس وانحصرت منه ولهذا قال تعالى (من إله غير الله يأتىكم بضياء) أى تبصرون به وتستأنسون بسببه ( أفلا تسمعون ؟ ) ثم أخبر تعالى أنه لو جعل النهار سرمداً أى دائماً مستمرا إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم ولتعبت الأبدان وكلت من كثرة الحركات والأشغال ولهذا قال تعالى (من إله غير الله يأتىكم بليل تسكنون فيه) أى تستريحون من حركاتكم وأشغالكم ( أفلا تبصرون ؟ \* ) ومن رحمته ( أى بكم ) جعل لكم الليل والنهار ( أى خلق هذا وهذا ) لتسكنوا فيه ( أى فى الليل ) ولتبتغوا من فضله ( أى فى النهار ) بالأسفار والترحال ، والحركات والأشغال ، وهذا من باب اللف والنشر . وقوله ( ولعلكم تشكرون ) أى تشكرون الله بأنواع العبادات فى الليل والنهار ، ومن فاته شئ بالليل استدركه بالنهار أو بالنهار استدركه بالليل كما قال تعالى ( وهو الذى جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ) والآيات فى هذا كثيرة .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ \* وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

وهذا أيضا نداء ثان على سبيل التوبيخ والتفريع لمن عبد مع الله إلها آخر يناديهم الرب تعالى على رءوس الأشهاد فيقول ( أين شركائى الذين كنتم تزعمون ) أى فى دار الدنيا . ( ونزعنا من كل أمة شهيدا ) قال مجاهد : يعنى رسولا ( قلنا هاتوا برهانكم ) أى على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء ( فعلوا أن الحق لله ) أى لا إله غيره فلم ينطقوا ولا يحيروا جوابا ( وضل عنهم ما كانوا يفترون ) أى ذهبوا فلم ينفعوهم .

﴿ إِنْ قَرُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبِعَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُفْرِ مَا إِنْ مَفَاتِيحُهُ لَتَنُوبًا بِالْعُسْبِيَةِ أُولَىٰ الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ \* وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾

قال الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال ( إن قارون كان من قوم موسى ) قال كان ابن عمه ، وهكذا قال إبراهيم النخعي وعبد الله بن الحارث بن نوفل وسماك بن حرب وقتادة ومالك بن دينار وابن جريج وغيرهم أنه كان ابن عم موسى عليه السلام . قال ابن جريج هو قارون بن يسهب بن قاهث وموسى بن عمران بن قاهث ، وزعم محمد بن إسحاق بن يسار أن قارون كان عم موسى بن عمران عليه السلام . قال ابن جريج وأكثروا العلم على أنه

كان ابن عمه والله أعلم وقال قتادة بن دعامة كنا نحدث أنه كان ابن عم موسى وكان يسمى النور لحسن صوته بالتوراة ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري فأهلكه البغي لكثرة ماله: وقال شهر بن حوشب زاد في ثيابه شبرا طولاً ترفعا على قومه . وقوله ( وآتيناه من الكنوز) أى الأموال ( ما إن مفتاحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ) أى ليثقل حملها الفئام من الناس لكثرتها . قال الأعمش عن خيشمة كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود كل مفتاح مثل الاصبع كل مفتاح على خزانة على حدته فإذا ركب حملت على ستين بغلا أغر محجلا وقيل غير ذلك والله أعلم . وقوله ( إذ قال له قومه لانفرح إن الله لا يحب الفرحين ) أى وعظه فيما هو فيه صالحو قومه فقالوا على سبيل النصيح والارشاد : لا تفرح بما أنت فيه يعنون لا تبطر بما أنت فيه من المال (إن الله لا يحب الفرحين) قال ابن عباس يعنى المرحين ، وقال مجاهد يعنى الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم ، وقوله ( وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ) أى استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة فى طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات التى يحصل لك بها الثواب فى الدنيا والآخرة ( ولا تنس نصيبك من الدنيا ) أى مما أباح الله فيها من المآكل والمشرب والملابس والمسكن والنكاح فان لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا ولزورك عليك حقا فآت كل ذى حق حقه ( وأحسن كما أحسن الله إليك ) أى أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك ( ولا تبغ الفساد فى الأرض ) أى لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به فى الأرض وتسىء إلى خلق الله ( إن الله لا يحب المفسدين ) .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَو لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِهِ هُوَ أَشَدُّ مِنهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

يقول تعالى محبرا عن جواب قارون لقومه حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير ( قال إنما أوتيته على علم عندي ) أى أنا لا أفتر إلى ما تقولون فان الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأني أستحقه ولحبهته لى فتقديره إنما أعطيته لعلم الله فى أنى أهل له وهذا كقوله تعالى ( وإذا مس الإنسان ضرعا نأثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم ) أى على علم من الله بى وكقوله تعالى ( ولئن أذقناهم رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى ) أى هذا أستحقه . وقد روى عن بعضهم أنه أراد ( إنما أوتيته على علم عندي ) أى أنه كان يعانى علم الكيمياء وهذا القول ضعيف لأن علم الكيمياء فى نفسه علم باطل لأن قلب الأعيان لا يقدر أحد عليها إلا الله عز وجل قال الله تعالى ( يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذرة فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة ) وهذا ورد فى الصورين الذين يشبهون بخلق الله فى مجرد الصورة الظاهرة أو الشكل فكيف بمن يدعى أنه يحيل ماهية هذه الذات إلى ماهية ذات أخرى هذا زور ومحال ، وجهل وضلال ، وإنما يقدرون على الصبغ فى الصور الظاهرة وهى كذب وزغل وعمويه وترويج أنه صحيح فى نفس الأمر وليس كذلك قطعا لا محالة ولم يثبت بطريق شرعى أنه صح مع أحد من الناس من هذه الطريقة التى يتعاطها هؤلاء الجهلة الفسقة الأفاكون فأما ما يجريه الله سبحانه من خرق العوائد على يدي بعض الأولياء من قلب بعض الأعيان ذهباً أو فضة أو نحو ذلك فهذا أمر لا ينكره مسلم ولا يردده مؤمن ولكن هذا ليس من قبيل الصناعات وإنما هذا عن مشيئة رب الأرض والسماوات واختياره وفعله كما روى عن حيوة بن شريح المصرى رحمه الله تعالى أنه سأله سائل فلم يكن عنده ما يعطيه ورأى ضرورته فأخذ حصاة من الأرض فأجالها فى كفه ثم ألقاها إلى ذلك السائل فإذا هى ذهب أحمر . والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة جدا يطول ذكرها ، وقال بعضهم إن قارون كان يعرف الاسم الأعظم فدعا الله به فتمول بسببه . والصحيح المسمى الأول ولهذا قال الله تعالى رادا عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال ( أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ) أى قد كان من هو أكثر منه مالا وما كان



وقد ذكر أن هلاك قارون كان من دعوة موسى نبى الله عليه السلام واختلف في سببه فمن ابن عباس والسدى أن قارون أعطى امرأة بغيا مالا على أن تهت موسى بحضرة الملائكة من بنى إسرائيل وهو قائم فيهم يتلو عليهم كتاب الله تعالى فتقول يا موسى إنك فعلت بي كذا وكذا فلما قالت ذلك في الملائكة موسى عليه السلام أردد من الفرق وأقبل عليها بعد ما صلى ركعتين ثم قال ، أنشدك بالله الذى فرق البحر وأنجاكم من فرعون وفعل كذا وكذا لما أخبرتنى بالذى حملك على ماقلت ؟ فقالت أما إذا نشدتنى فان قارون أعطانى كذا وكذا على أن أقول ذلك لك وأنا أستغفر الله وأنوب إليه فعند ذلك خر موسى لله عز وجل ساجدا وسأل الله فى قارون فأوحى الله إليه أن قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه فأمر موسى الأرض أن تبطلعه وداره فكان ذلك . وقيل إن قارون لما خرج على قومه فى زينته تلك وهو راكب على البغال الشهب وعليه وعلى خدمه ثياب الأرجوان المصبغة فمر فى محفله ذلك على مجلس نبى الله موسى عليه السلام وهو يذكرهم بأيام الله فلما رأى الناس قارون انصرفت وجوههم نحوه ينظرون إلى ما هو فيه فدعاه موسى عليه السلام وقال : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال يا موسى أما لئن كنت فضلت على النبوة فلقد فضلت عليك بالدنيا ولئن شئت لنخرجن فتدعون على وأدعو عليك ، فخرج موسى وخرج قارون فى قومه فقال موسى عليه السلام تدعو أو أدعو أنا ؟ فقال بل أدعوا أنا فدعا قارون فلم يجبه له ثم قال موسى أدعو ؟ قال نعم فقال موسى اللهم مر الأرض أن تطيعنى اليوم فأوحى الله إليه أنى قد فعلت فقال موسى يا أرض خذيهما فأخذتهما إلى أقدامهم . ثم قال خذيهما فأخذتهما إلى ركبهم ثم إلى مناكبهم ثم قال أقبلى بكنوزهم وأمواهم قال : فأقبلت بها حتى نظروا إليها ثم أشار موسى بيده ثم قال اذهبوا بنى لاوى فاستوت بهم الأرض ، وعن ابن عباس قال : خسف بهم إلى الأرض السابعة وقال قتادة ذكر لنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة فهم يتجلجلون فيها إلى يوم القيامة ، وقد ذكر ههنا إسرائيليات غريبة أضربنا عنها صفحا . وقوله تعالى ( فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ) أى ما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه وحشمه ، ولا دفعوا عنه ثمة الله وعذابه ونكاله ولا كان هو فى نفسه منتصرا لنفسه فلانصرله من نفسه ولا من غيره

وقوله تعالى ( وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس ) أى الذين لما رأوه فى زينته ( قالوا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لودحظ عظيم ) فلما خسف به أصبحوا يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر أى ليس المال بديل على رضا الله عن صاحبه فإن الله يعطى ويمنع ويضيق ويوسع ويخفف ويرفع ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة وهذا كافى الحديث المرفوع عن ابن مسعود « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم ، وإن الله يعطى المال من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الإيمان إلا من يحب » ( لولا أن من الله علينا لحسف بنا ) أى لولا لطف الله بنا وإحسانه إلينا لحسف بنا كما خسف به لأنا وددنا أن نكون مثله ( ويكأنه لا يفلح الكافرون ) يعنون أنه كان كافرا ولا يفلح الكافرون عند الله لافى الدنيا ولا فى الآخرة وقد اختلف النحاة فى معنى قوله ههنا ويكأن فقال بعضهم معناه ويكأن اعلم أن ولكن خفف فقيك ويك ودل فتح أن على حذف اعلم ، وهذا القول ضعفه ابن جرير ، والظاهر أنه قوى ولا يشكلى على ذلك إلا كتابتها فى الصحاف متصلة ويكأن ، والكتابة أمر وضعى اصطلاحى والمرجع إلى اللفظ العربى والله أعلم ، وقيل معناها ويكأن أى ألم تر أن قاله قتادة . وقيل معناها ويكأن فصلها وجعل حرف وى للتعجب أو للتنبيه وكان بمعنى أظن وأحتسب . قال ابن جرير وأقوى الأقوال فى هذا قول قتادة إنها بمعنى ألم تر أن واستشهد بقول الشاعر :

سالتانى الطلاق إذ رأتنى قل مالى وقد جثمتانى بشكر

ويكأن من يكن له نشب يحب ومن يفتقر يعيش عيش ضر

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْمَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها القيم الذي لا يحول ولا يزول جعلها لعبادة المؤمنين المتواضعين الذين لا يريدون علواً في الأرض أي ترفعاً على خلق الله وتعاضلاً عليهم وتجبراً بهم ولا فساداً فيهم كما قال عكرمة العلو: التجبر . وقال سعيد بن جبير العلو البغي وقال سفيان بن سعيد الثوري عن منصور عن مسلم البطين العلو في الأرض التكبر بغير حق والفساد أخذ المال بغير حق ، وقال ابن جريج (لا يريدون علواً في الأرض) تعظاً وتجبراً (ولافساداً) عملاً بالمعاصي . وقال ابن جرير حدثنا وكيع حدثنا أبي عن أشعث السمان عن أبي سلام الأعرج عن علي قال : إن الرجل ليعجبه من شركائه نعله أن يكون أجود من شركائه نعل صاحبه فيدخل في قوله تعالى (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين) وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره ، فإن ذلك مذموم كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنه أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد » وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجميل فهذا لا بأس به فقد ثبت أن رجلاً قال : يا رسول الله إني أحب أن يكون ردائي حسناً ونعلي حسنة أفمن الكبر ذلك ؟ فقال « لا ، إن الله جميل يحب الجمال » . وقال تعالى (من جاء بالحسنة) أي يوم القيامة (فله خير منها) أي ثواب الله خير من حسنة العبد فكيف والله يضاعفه أضعافاً كثيرة وهذا مقام الفضل ، ثم قال (ومن جاء بالسيئة فلا يجزي الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون) كما قال في الآية الأخرى (ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار ، هل تجزون إلا ما كنتم تعملون) وهذا مقام الفضل والعدل

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَيَّ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ \* وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ \* وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ \* وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

يقول تعالى أمراً رسوله صلوات الله وسلامه عليه ببلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس ، ومخبراً له بأنه سيرده إلى معاد وهو يوم القيامة فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة ولهذا قال تعالى (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) أي افترض عليك أداءه إلى الناس (لرادك إلى معاد) أي إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك كما قال تعالى (فلنساءن الذين أرسل إليهم ولنساءن المرسلين) وقال تعالى (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم) وقال (وجيء بالنبيين والشهداء) وقال السدي عن أبي صالح عن ابن عباس (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) يقول لرادك إلى الجنة ثم سألته عن القرآن . قال السدي وقال أبو سعيد مثلاً ، وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما (لرادك إلى معاد) قال إلى يوم القيامة ورواه مالك عن الزهري وقال الثوري عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (لرادك إلى معاد) إلى الموت ولهذا طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما وفي بعضها لرادك إلى معادك من الجنة وقال مجاهد يحييكم يوم القيامة وكذا روى عن عكرمة وعطاء وسعيد بن جبير وأبي قزعة وأبي مالك وأبي صالح وقال الحسن البصري إني والله إن له لمعاداً فيبعثه الله يوم القيامة ثم يدخله الجنة . وقد روى عن ابن عباس غير ذلك كما قال البخاري في التفسير من صحيحه حدثنا محمد بن مقاتل أنبأنا يعلى حدثنا سفيان المصفرى عن عكرمة عن ابن عباس (لرادك إلى معاد) قال إلى مكة وهكذا رواه النسائي في تفسير سننه وابن جرير من حديث يعلى وهو ابن عبيد الطنافسي به وهكذا رواه العوفي عن ابن عباس (لرادك إلى معاد) أي لرادك إلى مكة كما أخرجك منها وقال محمد ابن إسحق عن مجاهد في قوله (لرادك إلى معاد) إلى مولدك بمكة . وقال ابن أبي حاتم وقد روى عن ابن عباس ويحيى ابن الجزار وسعيد بن جبير وعطية والضحاك نحو ذلك . وحدثنا أبي حدثنا بن أبي عمر قال : قال سفيان فسمعنا من

مقاتل منذ سبعين سنة عن الضحاك قال لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة فأنزل الله عليه ( إن الذي فرض عليك الكتاب لرادك إلى معاد ) إلى مكة وهذا من كلام الضحاك يقتضى أن هذه الآية مدنية وإن كان مجموع السورة مكيًا والله أعلم . وقد قال عبد الرزاق حدثنا معمر عن قتادة في قوله تعالى ( لرادك إلى معاد ) قال هذه ما كان ابن عباس يكتمها . وقد روى ابن أبي حاتم بسنده عن نعيم القارى أنه قال في قوله ( لرادك إلى معاد ) قال إلى بيت المقدس وهذا والله أعلم يرجع إلى قول من فسر ذلك بيوم القيامة لأن بيت المقدس هو أرض المحشر والنشر والله الموفق للصواب ووجه الجمع بين هذه الأقوال أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة وهو الفتح الذي هو عند ابن عباس أمانة على اقتراب أجل النبي صلى الله عليه وسلم كما فسر ابن عباس سورة ( إذا جاء نصر الله والفتح ) إلى آخر السورة أنه أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم نعي إليه ، وكان ذلك بحضرة عمر بن الخطاب وواقفه عمر على ذلك وقال : لا أعلم منها غير الذي تعلم ، ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله ( لرادك إلى معاد ) بالموت وتارة بيوم القيامة الذي هو بعد الموت وتارة بالجنة التي هي جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله وابلغها إلى الثقلين الإنس والجن ، ولأنه أكمل خلق الله وأفصح خلق الله وأشرف خلق الله على الإطلاق وقوله تعالى ( قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين ) أى قل لمن خالفك وكذبك يا محمد من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم قل ربى أعلم بالمهتدى منكم ومنى واستعملون لمن تكون له عاقبة الازولن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة . ثم قال تعالى مذكراً لثيبه نعمته العظيمة عليه وعلى العباد إذ أرسله إليهم ( ولم كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب ) أى أما كنت تظن قبل انزال الوحي إليك أن الوحي ينزل عليك ( ولكن رحمة من ربك ) أى إنما أنزل الوحي عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة ( فلا تكونن ظهيراً ) أى معيناً ( للكافرين ) ولكن فارقهم وناذهم وخالفهم ( ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك ) أى لا تتأثر لخالفهم لك وصدتم الناس عن طريقك لا تلوى على ذلك ولا تباله فان الله معك كلمتك ومؤيد دينك ومظهر ما أرسلك به على سائر الأديان ولهذا قال ( وادع إلى ربك ) أى إلى عبادة ربك وحده لا شريك له ( ولا تكونن من المشركين ) وقوله ( ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو ) أى لا تليق العبادة إلا له ولا تنبغى الإلهية إلا لعظمته . وقوله ( كل شيء هالك إلا وجهه ) إخبار بأنه الدائم الباقي الحى القيوم الذى تموت الخلائق ولا يموت كما قال تعالى ( كل من عليها فان \* ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ) فعبّر بالوجه عن الذات وهكذا قوله ههنا ( كل شيء هالك إلا وجهه ) أى إلا إياه وقد ثبت في الصحيح من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أصدق كلمة قالها الشاعر لبيد \* ألا كل شيء ما خلا الله باطل \* » وقال مجاهد والثوري في قوله ( كل شيء هالك إلا وجهه ) أى إلا ما أريد به وجهه ، وحكام البخارى في صحيحه كالتقرر له ، قال ابن جرير : ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر

أستغفر الله ذنبا لست محصيه \* رب العباد إليه الوجه والعمل

وهذا القول لا ينافى القول الأول فان هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة ، والقول الأول مقتضاه ان كل الذوات فانية وزائلة إلا ذاته تعالى وتقدس فانه الأول الآخر الذى هو قبل كل شيء وبعد كل شيء . قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا في كتاب التفكير والاعتبار حدثنا أحمد بن محمد بن أبى بكر حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا عمر بن سليم الباهلى حدثنا أبو الوليد قال : كان ابن عمر إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتى الحربة فيقف على بابها فينادى بصوت حزين : فيقول أين أهلك ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول ( كل شيء هالك إلا وجهه ) وقوله ( له الحكم ) أى الملك والتصرف ولا معقب لحكمه ( وإليه ترجعون ) أى يوم معادكم فيجزىكم بأعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر . آخر تفسير سورة القصص والله الحمد والمنة